العدد ٢٠٠٣/٢٨

الأحد ١٣ تموز

أحد آباء المجمع المسكوني الرابع

تذكار جامع احتفالي

لجبرائيل رئيس الملائكة

وأبينا البار استفانوس السابوي

اللحن الثالث

إنجيل السَحَر الرابع

الرسالة

(تيطس ٣: ٨–١٥)

يا ولدي تيطُسُ صادقةٌ هي الكلمةُ وإيَّاها أريدُ أن تقرِّرَ حتَّى يَهتمَّ الذين آمنوا باللهِ في القيامِ بالأعمالِ الحسنة. فهذهِ هي الأعمالُ الحسنةُ والنافِعة* أمَّا المباحثاتُ الهذيانيَّةُ والأنسابُ والخصوماتُ والمماحكاتُ الناموسيَّةُ فاجتنبها. فإنَّها غيرُ نافعةٍ وباطِلةٌ* ورجلُ البدعةِ بعدَ الإنذارِ مرَّةً وأُخرى أعرِض عنهُ* عالِمًا أنَّ مَن هو كذلك قد اعتسفَ وهُوَ في الخطيئةِ يقضي بنفسهِ على نفسه* ومتى أرسلتُ إليكَ أرتماسَ أو تيخيكوسَ فبادِرْ أن تأتيَني إلى نيكوبولِسَ لأنّي قد عزمتُ أن أُشتِّيَ هناك* أمَّا زِيناسُ معلِّمُ الناموسِ وأَبُلُّوسُ فاجتهد في تشييعهما متأهبينِ لئلاَّ يُعوزهما شيءٌ* وليتعلَّم ذوونا أن يقوموا بالأعمالِ الصالحةِ للحاجاتِ الضَّروريَّة حتَّى لا يكونوا غيرَ مثمرين* يسلِّمُ عليكَ جميعُ الذينَ معي* سلِّمْ على الذين يُحبُّوننا في الإيمان. النعمةُ معكم أجمعين. آمين.

مشيئة المسيح البشرية

تُقيم الكنيسة المقدَّسة في الأحد الواقع بين ١٣ و١٩ تموز تذكارًا للآباء المجتمعين في المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونيّة (٤٥١). وتحوز الصيغة التي وضعها الآباء خلال هذا المجمع أهميَّة فائقةً في تاريخ الكنيسة الشرقية ولاهوتها. فلقد أكّد آباء المجمع، دحضًا للتعاليم المنحرفة التي قال بها كل من بطريرك القسطنطينية نسطوريوس والراهب المدعو أوطيخة، أنّ الكلمة المتجسّد، يسوع المسيح،إله كامل وإنسان كامل من طبيعتين وفي طبيعتين إلهيَّة وبشريَّة، وأنّ هاتين الطبيعتين متّحدتان في شخص المسيح من دون انفصال أو انقسام أو امتزاج أو تغيّر.

هذا التعليم يستتبع أنّ يسوع المسيح يتمتّع إلى جانب مشيئته الإلهيَّة بمشيئةٍ بشريَّة كاملة. فإذا كانت طبيعة المسيح البشريَّة تامة، ينتج من هذا أنّ له مشيئة إنسانيَّة غير منقوصة.

ما هي أهميَّة هذا الكلام اللاهوتي المتعلق بمشيئة يسوع البشريَّة؟

الحقّ أنّ القرن الميلادي السابع شهد ضمن إطار الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة تعليمًا منحرفًا ادّعى أنّ في المسيح يسوع مشيئةً واحدة، ما يؤدّي، في نهاية المطاف، إلى نكرانٍ لمشيئة المسيح البشريَّة.هذا التعليم روّج له الإمبراطور هرقل (٦١٠–٦٤١) وبعض خلفائه طمعًا في استمالة رافضي مجمع خلقيدونيَّة، وكانوا في معظمهم من أقباط مصر وسريان أنطاكية، وذلك صونًا للوحدة الدينية التي كان يهدّد انفراط عقدها بتفسّخ الوحدة السياسيّة في الإمبراطوريَّة. الدفاع عن المشيئتين في المسيح، وتاليًا عن وجود مشيئةٍ بشريَّةٍ حقيقيَّةٍ فيه، انبرى له قلّة من رهبان الشرق الذين كانوا قد فرّوا إلى الغرب، وتحديدًا إلى قرطاجة في شمال أفريقيا، بسبب الحملات الفارسيَّة على الحدود الشرقيَّة للإمبراطوريَّة. أهمّ هؤلاء الرهبان كان صفرونيوس الذي أصبح في ما بعد بطريرك مدينة أورشليم (٦٣٤–٦٣٨) وتلميذه مكسيموس الذي أطلقت عليه الكنيسة بعد موته لقب المعترف، يُضاف إليهما البابا مرتينوس الأول (٦٤٩–٦٥٥) أسقف رومية. وفيما مات صفرونيوس شيخاً طاعناً في

السن إثر تسليمه مدينة القدس إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطّاب، قضى كلّ من مكسيموس وأسقف رومية مرتينوس في النفي، وكلاهما لا يعرف إلى ماذا ستفضي المشادّة اللاهوتيّة حول المشيئة، والتي دفعت الإمبراطور البيزنطي كونستانس الثاني (٦٤١-٦٦٨)، حفيد هرقل، إلى تشريد المدافعين عن المشيئتين في يسوع أو نفيهم أو قتلهم. المهم أن المجمع المسكوني السادس(٦٨٠-٦٨١) المنعقد في القسطنطينية أعاد الاعتبار لهذه السحابة من الشهود، صفرونيوس ومكسيموس ومرتينوس، متبنيًّا كلامهم على أنّ المسيح يتمتّع، انسجاماً مع تعليم مجمع خلقيدونيّة، بمشيئتين كاملتين، إلهيَّة وبشريَّة.

ما أهميَّة القول بمشيئتين في يسوع وفي الدفاع، تاليًا، عن مشيئته البشريَّة؟ المسألة، بكل بساطة، تتعلق بضرورة أن يكون يسوع شبيهًا لنا في كل شيء ومجرّبًا مثلنا في كل شيء ما عدا الخطيئة (عبر٤: ١٥). فإذا لم يكن ليسوع مشيئة بشريَّة تامّة غير منقوصة، هذا يعني أنّ جزءًا من طبيعتنا البشريَّة، وهو جزء هام لكونه مركز الحريَّة فينا، لم يخلَّص. وهذا يعني أيضًا أن الإنسان يسوع لم يُقبل على الموت بملء إرادته،بل كان مجرّد آلة يتحكم بها الله.من هنا فإنّ النص الأساس الذي انطلق منه القديس مكسيموس المعترف، أهمّ المدافعين عن وجود المشيئتين لدى الإله المتجسّد، هو بالذات نص الجسمانيَّة (راجع مثلاً لو٢٢: ٣٩-٤٦) الذي يسرد كيف تردّد يسوع أمام الموت للوهلة الأولى طالبًا من أبيه أن تعبر عنه كأس الصليب، ثم عاد فأطاع مشيئة أبيه قائلاً «لتكن مشيئتك، لا مشيئتي». هذا النص يثبت، في رأي القديس مكسيموس، بما لا يقبل الجدل أن يسوع كان له مشيئة بشريَّة حقيقيَّة أرادت، في بادئ الأمر، أن تتجنّب الموت، وذلك لأنّ كلّ طبيعة بشريَّة تنكمش أمام الموت، ولا سيّما طبيعة يسوع المنزّهة عن الخطيئة. مشيئة يسوع البشريَّة دخلت، إذًا، في الجسمانيَّة في نوع من التوتر مع مشيئته الإلهيَّة الراغبة في أن يتابع يسوع مسيرته حتى الصليب. بيد أنّ هذا التوتر لم يبلغ حدّ التناقض. فالمشيئة البشريَّة عادت وأطاعت بملء إرادتها، أي بكامل الحريّة التي تتمتّع بها، المشيئة الإلهيَّة، قابلةً المضي إلى الآلام والصليب. هكذا يتأكّد في الجسمانيّة في لحظة نزاع يسوع وصيرورة عرقه كقطرات دمٍ تتساقط على الأرض (لو ٢٢:٤٤) أنّ لديه مشيئة بشريَّة حقيقيّة لا يمكن إنكار وجودها أو اختزالها.

ويؤكّد القديس مكسيموس أنّ هذه المشيئة البشريّة في يسوع حرّة تمامًا لكنّها تختبر حريّتها بالطاعة لله، كما في حادثة الجسمانيّة، لا بالتمرّد عليه. هنا، ثمّة فرق جوهري بين ما يسمّيه البشر الحريّة الإنسانيّة والحريّة كما عاشها يسوع. البشر يختبرون حريّتهم بالتمرّد. المراهق مثلاً يجد حريّته في الانعتاق من سلطة أبويه. أمّا يسوع، ولكون إرادته البشريّة غير مريضة بالخطيئة، فيختبر حريّته المطلقة بطاعته المطلقة لأبيه التي بلغت ذروتها لحظة الصليب والموت. الحريّة الحقّة، إذًا، هي تلك التي أظهرها يسوع، أي الطاعة لله. ينتج من هذا أنّ النموذج الذي كشفه يسوع لنا في حياته يدعونا إلى أن نغيّر ذهننا ونتبنّى مفهومًا جديدًا للحريّة قائمًا على الطاعة لله. في هذا يكمن معنى الطاعة التي ينذر كلّ راهب نفسه لها. فالطاعة الرهبانيّة ما هي إلاّ إعادة اكتشاف الحريّة الإنسانيّة الحقيقيّة التي تستند إلى الطاعة

الإنجيل

(متى ٥: ١٤-١٩)

قالَ الربُّ لتلاميذِهِ أنتم نورُ العالَم. لا يمكنُ أنْ تخْفى مدينةٌ واقعةٌ على جبلٍ* ولا يُوقَدُ سِراجٌ ويُوضَعُ تحتَ المكيالِ لكِنْ على المنارة ليُضيءَ لجميعِ الذينَ في البيت* هكذا فليُضِئ نورُكم قدَّامَ الناسِ ليَرَوا أعمالَكم الصالحةَ ويُمجِّدوا أباكم الذي في السموات. لا تظنُّوا أنّي أتيتُ لأحُلَّ الناموسَ والأنبياءَ إنّي لم آتِ لأحُلَّ لكِن لأُتمِّم* الحقَّ أقولُ لكم إنَّهُ إلى أنْ تَزولَ السماءُ والأرضُ لا يزولُ حَرْفٌ واحدٌ أو نُقْطةٌ واحدةٌ من الناموس حتَّى يَتِمَّ الكلُّ* فكلُّ مَن يَحُلُّ واحدةً من هذه الوصايا الصغار ويُعلِّمُ الناسَ هكذا، فإنَّهُ يُدعى صغيرًا في ملكوتِ السموات. وأمَّا الذي يعملُ ويُعلِّمُ فهذا يُدعَى عظيمًا في ملكوت السموات.

تأمل

إذا كان عالمنا هذا بمنزلة أواني الزراعة ومدينة المتاجر والأرباح وسفينة المسافرين فكيف لا نكون مُستعدِّين لمواعيدنا مهتَّمين بودائعنا محافظين على فوائد الفضيلة. وإذا كان الشرط في دخولنا الملكوت أن يزيد برُّنا على الكتبةِ والفريسيين، وأن نُعلِّم الناس بالأقوال والأعمال، وأن نكون محبّين لإخوتنا وادّين لأعدائنا، مسارعين

إلى طلب الصلح والسلام مزيّنين ذواتنا بالكمال، فكيف نكون هكذا كسالى متهاونين ونحن نعلم انه ينبغي لنا ويجب علينا أن نكون عاملين معلّمين محبّين لإخوتنا، مترجّحين في الفضيلة على غيرنا، مجاهدين في تحصيل الكمال المسيحيّ. ونعلم ان لنا مع ذلك أعداء يلتمسون قهرنا ويجتهدون في سقوطنا. فلننبِّه عقولنا من غفلة الكسل ونصرف أنفسنا عن الانهماك بالشهوات البدنيَّة لئلاّ يجد عدوُّنا سبيلاً إلى قهرنا. وإذا كان عدوُّنا لا ينام والمبغض لجنسنا لا يغفل فلماذا لا نهيئ أسلحتنا ونشيِّد أسوار مدينتنا ونقيم عليها الحراس والطلائع والمجاهدين لئلاً يهجم علينا بغتةً ونحن في غفلة إهمالنا فيجعلنا ضحكةً للناظرين وعاراً أمام المجاهدين. لأن أولئك يأخذون إكليل المجد ويفوزون بالخلود في النعيم ونحن نُطرد بجريرة تهاوننا.وإذا كانت الكلمات الرديئة تفسد الضمائر السليمة كما قال الرسول فينبغي لنا أن نهرب دائماً من معاشرة الأشرار والسكيرين والمستهزئين وأمثالهم لأن الاختلاط بهم واستماع كلامهم على الدوام يجذب الأخيار السليمي القلوب إلى التخلّق بأخلاقهم. وكما ان الذين يجالسون العطّارين وباعة المسك والطيوب العبقة المطلقة لله، فتأتي منسجمةً ومشيئة الله المعبَّر عنها في الإنجيل والتي تترجم ذاتها عبر محبّة الإخوة. وهذه هي الطاعة ذاتها التي يطلبها بولس الرسول من أهل أفسس (٢١:٥) مخصّصًا بها النساء حيال أزواجهنّ (٢٢:٥)،وهي بطبيعة الحال تتناقض وطاعة التسلط التي ليست إلاّ تعبيرًا عن الطبيعة البشريّة الساقطة. هكذا يصبح تعليم الكنيسة عن مشيئة يسوع البشريَّة نبراسًا لأعضاء هذه الكنيسة ومصباحًا يهتدون به أعاشوا في الدير أم في العالم. التعليم الكنسيّ عن مشيئة يسوع الإنسانيّة هو البوصلة التي يهتدي بها المؤمنون إذا ما أرادوا أن يطيعوا سيّدهم.

ما هو الإنسان؟

فيما يلي نص الكلمة التي خاطب بها سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس طلاب كلية الصحة العامة في جامعة البلمند في حفل تخرّجهم الذي أُقيم في ١ تموز ٢٠٠٣ في قاعة بتلوني:

« إن أحببتم الذين يحبونكم، فأي أجر لكم؟(متى٤٦:٥)،وإن سلّمتم على إخوتكم فقط، فأي فضل تصنعون؟ (متى٤٧:٥). وإذا أحسنتمْ إلى الذين يحسنون إليكم، فأي فضل لكم؟ (لو ٦: ٣٣).

«أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات» (متى٤٤:٥–٤٥).

«كونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم» (لو ٦: ٣٦).

ما هو الإنسان؟ سؤال طُرح منذ القديم وما زال حتى يومنا في ضمير من يفكر في سيرورة هذا العالم، وفي أذهان أولئك الذين يؤثّرون فيها.

ما هو الإنسان؟ أهو حيوان سياسي كما قال أرسطو أو حيوان ناطق كما قال هو أيضاً أو حيوان عاقل كما نظر إليه الرواقيون والمدرسيون فيما بعد؟أم هو كائن يضحك؟أو كما حدّده ديكارت يفكر:أنا أفكر إذاً أنا موجود؟ أو يستنتج فيقرّر؟أو يعمل؟ أو يبدع؟ إذا ما أخذنا بعضاً من كثير.

الإنسان يشكّل موضوعاً مقدساً بالنسبة للإنسان كما قال المفكر الرواقي Senecca في النصف الأول من القرن الأول بعد مجيء الرب. وسيبقى الإنسانُ لغزاً للإنسان ولن يستطيع أحدٌ إدعاءَ معرفته وتحديده بتعريف إلا إذا رآه بعيني الله. وَعَيْنا الله تعرفُ الإنسانَ بالمحبة لأن اللهَ محبة. هذا الكائن (أي الإنسان) لا يُدرَك إلا إذا التهمته المحبة.

الله يعرف مخلوقَه ولكن الجهلَ، مصدرَ تعاسةِ الإنسان وآلامِه وقلقِه، موجودٌ فيه بسبب محبته لذاته وانغلاقه في نفسه وعدم نموه في الاتجاه نحو شبيهه، نحو أخيه.

يمكنني أن أعرِّفَ الكائنَ البشري بقولي أنه الكائنُ القادرُ على المحبة، الممتلكُ إرادةَ المحبة. وأقصد الكائنَ الذي يَقْبَلُ أو يَرْفُضُ، الذي يحوي في داخله فسحةً لسكنى قريبه فيه.

الإنسان قادرٌ على أن يتجاوز نفسه وبهذا الفعل يحيا حقاً، لأنه بتخطيه حدود الفردية والأنا ينمو ويزهو فيمسي الآخرُ أناه. الآخر هو نحن. وجودي هو ما هو بوجود من هو أمامي، وهو يؤكد حضوري، لا بل يظهر حركتي وحريتي في الاتجاه إليه أو في الانكماش عنه. لا حرية بدون محبة.

هذه الحركة التي أحياها تبث فيَّ الرجاءَ وتُبعد عني كلَّ يأس وتغذي فيَّ القدرةَ على المثابرةِ والثَّباتِ في ما أريد، كما أنها تجعل من الآخر موضوعاً حيًّا محبوباً، مُحتَضَناً، فتمنحه الفرح والحياة.

الإنسان وُلد محبوباً لذا شعر

بالمحبة وافتقدها. الله وهبنا المحبة المولودة فينا لأنه أحبَّنا أولاً. وهذه المحبة ملكُ الآخر. إن انحصرتَ في ذاتك وسعيتَ إلى ما لنفسك، فما هذا إلا دليلٌ على خوف باطني على وجودك، تظن أنك قادرٌ على إزالته بذاتك، إلا أنك تكتشف، مع مرور الزمن، أنك تغرق في الوحدة والظلمة.

الخوف يزول عندما تقتحم حدود أخيك بالمحبة، ولا أقصد بالأخ شخصًا واحدًا معيّنًا بل كلّ إنسان. المحبة هذه تأتي من نبع واحدٍ هو الله. وبمقدار ما نقترب من الله تزدادُ المحبةُ فينا وتكتمل. بها نتجدَّد ونكبر. تُبدعنا وتملأُنا.

في المحبة ينمو الإنسان إلى الملء، ينمو إلى ملء القامة الإلهية حيث يصبح الصمتُ كلامًا لأن الله فيه، واللهُ إلينا كلمة. المُحِبُّ لا يتكلَّم، لا يحتاج إلى كلمات لأنها في الصمت والطاعة تضحي حواجزَ بيننا وبين حضور الآخر فينا.

المُحِبُّ الحقيقي يتجه نحو كل صوب. لا حدود لمحبته. يحب كل إنسان، كل شيء، كل ما في الكون، لا يرى سوى الجمال لأنه يشرب من عين المحبة ويغتذي. ملؤه حب وحياته حب ولقاؤه حب. الحب يحييه وبه يُميت كل ما يميت الحب. هنا لا فرق بين المحبة والحب. المصدر واحدٌ والمياهُ الحيَّةُ نقيَّةٌ صافيَّةٌ ينتعش بها كل من حصل عليها. هذا الحب أو المحبة يتعاظم بالحب الإلهي المنحدر علينا وبه نندفع ليكتمل الآخر.

هذا الحب المجسَّد في كل من قال جئت لأخدُمَ لا لأُخدَم هو خدمة كليَّة مطلقة. الحب لا يبقى لذاته بل ينحدر على أقدام الآخرين ليغسلها، ليطهِّرها، ليجعلها سليمة.

مشكلة الإنسان اليوم هي عزلته. يَنْشُدُ السعادة بوسائل شتى وكلها تدخله في أعماق النفس سجينًا، منعزلاً.

ما أردت قوله أن السعادة الحقيقية تكون عندما تخرج من ذاتك وتصبح خادمَ المحبة عند أقدام الآخرين.

آمل أن تكون هذه رسالتكم وهذا ما تبتغون فتكون لكم الحياةُ أفضل.

أسأل الله أن يبارككم ويبارك ذويكم وجميع من كان لكم خادم التضحية والمحبة.

عيد مار الياس

بمناسبة عيد النبي الياس الغيور يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السابعة من مساء السبت ١٩ تموز ٢٠٠٣ في كنيسة دير مار الياس بطينا، وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الأحد ٢٠ تموز في كنيسة مار الياس في المصيطبة.

من أقوال الآباء

+ سألوا الأب مكاريوس قائلين: كيف ينبغي أن نصلّي؟ أجابهم: لا حاجة لنا إلى كثرة الكلام، بل إلى أن نمد أيدينا إلى العلاء ونقول: يا رب ارحمنا كما تريد وكما تعلم. وإذا حلّت بنا حرب نقول: أعنّا. فهو يعرف ما نحتاج إليه ويعاملنا برحمة.

+ قال الأب مكاريوس: لن تموت إذا صار عندك الهزء كالمديح والفقر كالغنى والحرمان كالقنية، لأنه يستحيل على من يؤمن جيداً ويسلك بتقوى أن يسقط في نتانة الأهواء وخديعة الشياطين.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

يكتسبون الروائح الذكيَّة ينبغي لنا نحن أيضًا أن نلازم الحكماء والمعلمين وأرباب الفضيلة لنقتدي بمثالهم في الصالحات. ويا للعجب من كون الفضيلة حسنة عند جميع الناس والرذيلة قبيحةٌ حتى عند الذين يفعلونها أيضًا. فإنك ترى السكّير مثلاً إذا رأى رجلاً سكران يستهزئُ به ويضحك عليه ويستنقص عقله. فانظر إلى فاعل الرذيلة كيف يستقبحها مع ممارسته لها. لأن الله وضع في طبائع البشر حاكمًا عادلاً لا ينظر إلى الوجوه ولا يأخذ الرشى وهو العقل الفاصل بين الفضيلة والرذيلة ليبيِّن جمال هذه وقباحة تلك فيكون الإنسان بلا عذر ولا حجَّةٍ عند المداينة في اليوم الأخير. وإذا كان ربنا له المجد قد وضع قانونًا سهلاً يسيرًا لخلاصنا وهو أن نحسن إلى المسيء ونصفح عن المخطئ، وهو تعالى يصفح عن زلاّتنا فماذا يكون عذرنا إذا لم نعمل بمثل ذلك؟ فإذا كانت القرابين لا تُقبل مع الحقد وكذلك الصوم والصلاة وبقيَّة الفضائل، وكان المغضب لأخيه باطلاً والقائل فيه قولاً رديئاً قد وُعِد بالعذاب في الجحيم فكيف تكون عقوبة الذين يُسيئون إلى اخوتهم الظالمين لهم والسالبين أموالهم والتاركين الاهتمام بمصالحهم؟

القديس يوحنا الذهبي الفم